محنة العزلة والنسيان

فيلم «أُركضي».. تراجيديا نفسية تحاصر امرأتين من جميع الجهات

مواجهة بين أم وابنتها تنتهي إلى اكتشاف حقائق صادمة

من أبرز أسباب نجاح أي فيلم الكتابة الدرامية والحبكات الثانوية المتقنة في السيناريو، هذا علاوة على دقة بناء الشخصيات، كل هذا يؤدي إلى عمل متماسك يقدم دراما فيلمية مغرية للمشاهدين وذات دلالات عميقة. ولعل أهم الأجزاء في نحت الشخصيات هو عمقها النفسي وتطورها مع تطور الأحداث. كل هذه العناصر نجدها عن جدارة في فيلم "اركضي" الذي يمثل دراما مميزة على مختلف الأصعدة.

طاهر علوان
كاتب عراقي

من الأنثوية إلى الأمومة إلى البحث عن الذات، سوف تتكامل صورة بناء نفسي عميق مثقل بالتداعيات وبالخبرات وما يدّخره اللاوعي في نفس امرأة ما تعيش بلا ماض واضح، سوى أنها تعيش لحظة عاصفة بأن تصبح أمًا ثم تفقد تلك الصفة وتنتقم بسبب ذلك.

تلك هي الإشكالية المركّبة التي يقدمها لنا فيلم "اركضي" للمخرج الأميركي من أصل هندي أنيش تشاغانتي، وهو نفسه كاتب السيناريو بالإضافة إلى سيف أو هانيان.

المواجهة الحاسمة

تبدأ تلك التراجيديا التي تم رسمها بعناية من خلال فقدان داين شيرمان (الممثلة سارا بولسون) لطفلتها في مرحلة الولادة في مشهد مشحون ومحزن، لننتقل بعد ذلك مباشرة وبعد 17 عاما إلى جلسة تروي فيها مجموعة من النساء معاناتهن مع أطفالهن المعاقين وعلى أساس أن عند داين ابنة معاقة لكنها تدهش الجميع في إشادتها بانتها وأنها ليست حزينة ولا منكسرة القلب.

على الجهة الأخرى هنالك كلوي (الممثلة كارا آلين) التي يقدمها الفيلم على أنها ابنتها، وهي فتاة في السابعة عشرة من عمرها تعاني عددا من الأمراض وأهمها شلل الأطراف السفلية، مما يجبرها على تعاطي عدة أنواع من أدوية أمراض القلب والسكري وغيرهما.

الفتاة الذكية مشغولة بالإلكترونيات والقراءة بنهم إلى درجة كونها جاهزة لدخول الجامعة، لكن ذلك لن يحصل قط، وتمضي أيام انتظارها وصول رسالة من الجامعة سدى في ظل إصرار الأم على أن شيئا من ذلك لم يحصل، ومع ذلك تصر على فتح كافة الرسائل بنفسها.

تلك الدائرة السردية التي لا تتعدى المرأتين اللتين تعيشان روتينا يوميا متكررا وكأننا نشاهد عرضا مسرحيا سرعان ما تتسع وتتعقد بشكل تدريجي مع أول بذرة شك تولد لدى كلوي.

واقعيا هنالك أسئلة بلا إجابة في تلك الدوامة اليومية؛ فالمرأتان كأنهما مقطوعتان عن العالم الخارجي، لا أحد يزورهما ولا يزوران أحدا ولا شاشة تلفزيون ولا هاتف نقالا ولا إنترنت، وهو ما يثير التساؤل حول سبب إصرار الأم على تلك العزلة، حتى أننا لا نشاهد كلوي وهي خارجة للتنزّه ولو لمرة واحدة.

على أن حبكة ثانوية وتفصيلا جزئيا بسيطا سيكونان السبب في ولادة بذرة الشك وشروع كلوي في التحرّي عن الحقيقة، إنه نوع غريب من الدواء في شكل كبسولة بيضاء وخضراء تكتشف كلوي أنه دواء مشكوك في أمره، حيث تصرّ الأم على أن تتعاطاه كلوي يوميا دون أن تعرف ماهيته.

اسم الدواء يتحول إلى أحجية ومصدر قلق بالنسبة إلى كلوي لغرض أن تعرف ما هو وما استخداماته ولماذا تخفيه الأم عنها، حتى تكتشف في لحظة فاصلة أنه دواء مخصص للكلاب ويساعد في إشعار الكلب بحركة أطرافه إذا ما أجريت له عملية جراحية.

تلك النقطة الفاصلة كانت كافية لاتضاح صورة أننا أمام امرأة سايكوباثية تحاصر فتاة شابة لسبب ما وتدمّر صحتها وتعزلها عن العالم الخارجي، تلك هي الخلاصة التي سوف توصل المرأتين إلى المواجهة الحاسمة.

> النزعة العنيفة والانتقامية للأم لا يحدّها حد إلى درجة أنها تقتل موظف البريد لأنه وقف إلى جانب ابنتها

لا شك أن من أبرز ميزات الفيلم الناجح الإيقاع المتسارع والنمو المتواصل للأحداث، وهذا ما ينطبق على هذا الفيلم وذلك من خلال نجاح المخرج في الدفع بتلك الدراما الفيلمية إلى نقطة مواجهة لا رجعة فيها.

تحولات صادمة

خلال ذلك استند المخرج إلى دعامتين أساسيتين على صعيد الشخصيتين الرئيسيتين، الأولى هي المشكل النفسي الذي تعاني منه الأم والذي يجعل منها شخصية عدوانية مريضة تخبئ عدوانيتها بغلاف الأمومة المخلصة والحريصة، في مقابل الذكاء الفطري لكلوي وسرعة بديهتها وإيجادها الحلول والاستنتاجات، وهي نقطة تحسب لكاتبي السيناريو في إقناعنا بقوة وجدارة كلتا الشخصيتين.

وتأكيدا على ذلك ولتمضي الأم في مشكلتها النفسية تحجر كلوي بشكل كامل وتغلق عليها الأبواب، وهنا سوف نكون أمام سلسلة من المشاهد المصنوعة بإتقان من خلال تسلل كلوي رغم إعاقتها، وتمكنها من النفاذ إلى سطح المنزل في مخاطرة شديدة تنتهي بها إلى حجر آخر في قبو المنزل.

النزعة العنيفة والانتقامية للأم لا يحدّها حد إلى درجة أنها تقتل موظف البريد لأنه قرر الوقوف إلى جانب كلوي.

بعد كل هذا التراكم من التحوّلات في الدراما والأعباء النفسية والصراعات سوف يتساءل المشاهد عن دوافع داين في كل ما قامت به، ولماذا هي تنتقم من الفتاة بهذا الشكل العدواني؟

يزيح المخرج الغطاء عن جوانب من الحقيقة أثناء احتجاز كلوي، عندما تكتشف هذه الفتاة ثلاث حقائق؛ أنها لم تكن مشلولة القدمين منذ طفولتها كما تزعم داين، والصور التي عثرت عليها تثبت ذلك، ثم اكتشافها أنها قد تم قبولها للدراسة في الجامعة وأن داين أخفت رسالة القبول، وأخيرا اكتشاف أنها ليست ابنة داين بل هي طفلة رضيعة اختطفتها داين انتقاما لفقدانها طفلتها.

بالطبع سوف يكرس المخرج هذه التحولات ببراعة وفي الوقت المناسب، وهو ما يدفع باتجاه تصعيد آخر ينتهي بمحاولة كلوي الانتحار بشرب مادة سامة ولتقع المواجهة الأخيرة بين داين ورجال الشرطة تنتهي بداين في السجن في مصحة عقلية بينما تحرص كلوي على زيارتها لكي تلقمها نفس تلك الكبسولة التي كانت تجبرها على أخذها.

غرباء ومرضى نفسانيون يغزون الشاشات

ليس المرض النفسي إلا عارض يمر به البشر بدرجات متفاوتة، وهو لا يختلف عن المرض الجسدي فكلاهما يتكاملان في هذا الكيان البشري. أما على أرض الواقع فالمرض النفسي يستدعي الخجل والشعور بالنقص وبالتالي التغاضي عنه وكأنه لم يكن.

لكنّ في المقابل غزت الشاشات جمهور المشاهدين بوفرة من قصص السايكوباثيين والعصابيين والفصاميين والعدوانيين وغيرهم من المصابين بشتى العقد النفسية والأمراض.

عندما قدم هيتشكوك رائعته "سايكو" في العام 1960 فإنه كان قد نبه السينمائيين إلى ذلك العالم الفسيح للشخصيات العصابية والفصامية وكيف بالإمكان توظيفها جماليا في دراما سينمائية مشوّقة لاسيما عندما يتم مزج المرض النفسي بالدوافع العدوانية المفضية للجريمة.

بالطبع كانت هنالك أعمال سبقت هذا الفيلم ضمن هذا المسار في الثلاثينات والأربعينات والخمسينات، وبإمكاننا أن نذكر العديد منها ومن ذلك "أم" للمخرج فريتز لانغ 1931، "الصقر المالطي" للمخرج جون هيوستون 1941، "النوم الكبير" لهوارد هوكس 1946، وفيلم "الرجل الثالث" للمخرج كارول ريد 1949، ولا ننسى هنا فيلم المخرج يوسف شاهين "باب الحديد" 1958 الذي قدم شخصية قناوي الإشكالية والمضطربة والتي لا تتورع عن القتل من أجل الاحتفاظ بفتاة المحطة.

على أننا مع تطور الدراسات النفسية وتفاقم الأمراض النفسية في المجتمعات الغربية خاصة صرنا أمام موجة من ذلك النوع من الأفلام المصنوعة بعناية سواء على صعيد السرد السينمائي أو على صعيد الشخصيات المصابة بعارض نفسي أو على الأقل تلك التي تسيطر عليها دوافع أنانية وعدوانية فتجعل منها شخصيات شديدة الشراسة وبعضها مستتر ومتوار خلف الشخصية الطبيعية بينما يخفي عللا قاتلة.

سوف نتذكر هنا أفلاماً نالت اهتماما نقديًا واسعاً والبعض منها حصدت جوائز عالمية وكانت موضوعاتها الأساسية هي العلل والأمراض النفسية، بل قل عالم النفس البشرية وأهوائها وتحوّلاتها وعقدها وانفعالاتها.

> أفلام الأمراض النفسية مصنوعة بعناية سواء على صعيد السرد السينمائي أو على صعيد الشخصيات وأعراضها وتطورها

سوف نتذكر هنا فيلم المخرج ستانلي كوبريك "الشروق" 1980، و"صمت الحملان" للمخرج جوناثان ديم 1991، و"الانفجار" لأنطونيوني 1966، و"الحاسة السادسة" للمخرج نايت شيامالان 1999، و"البجعة السوداء" للمخرج دارين أرونوفسكي 2010، و"أميريكان سايكو" للمخرجة ماري هارون 2000 وغيرها كثير.

على صعيد السينما العربية هنالك الكثير مما يجب الاشتغال عليه في ما يتعلق بالشخصيات العصابية والسايكوباثية في إطار المسكوت عنه من القصص التي تفصح عن مشكلات نفسية وعقلية غائرة، ما انفكت تتحول إلى أشكال شتى من السلوكيات الضارة لكونها متوارية في قاع الذات وفي اللاوعي ولا يسمح العرف السائد بالاقتراب منها. سوف نتذكر هنا أفلاما مثل "سونيا والمجنون" و"اللص والكلاب" و"العصفور" و"المستحيل" و"ميرامار" و"البريء" و"أغنية على الممر" و"بئر الحرمان" و"أين عقلي" و"زوجتي والكلب" و"ليل وقضبان" و"الفيل الأزرق" و"عمر قتلته الرجولة" و"الحلفاوين" و"صمت القصور" و"أحلام المدينة" و"طوق الحمامة المفقود" و"البراق" وغيرها من الأفلام.

* ط. ع

إرهاب سينمائي في منطقة اللامعقول

تشتغل السينما على الحدث وعلى سلسلة من المرويّات التي تتقاذفها وسائل الإعلام ويلوكها الساسة ويسوّغونها بشكل ما حتى تكبر عملية التضخيم تباعاً فتصل القصة إلى السينما، وقد وصلت حداً كارثيا متجاوزة اللامعقول.

ربما لا توجد ثيمة سينمائية تحتمل الكثير من المبالغات مثل ثيمة الإرهاب، فهي بسبب الإدانة الجماعية لها وبسبب ما قدّمنا لها من تضخيم سياسي وإعلامي تتحول إلى غول مخيف وكائن أخطبوطي ربما توجد له بداية ولكن ليست له نهاية.

المطلوب، المشتبه به، الإرهابي، القاتل، الخلية الإرهابية، الوحشية والدموية، نزعة الانتقام، الكائنات العدوانية، هذه مفردات وغيرها كثير مما تكتنزه أبجدية سينما الإرهاب.

في فيلم "عيسى كاريوف، الرجل المطلوب بشدّة" للمخرج أنطون كوربين هنالك أوروبا وهي لا تكاد تلتقط أنفاسها في صراعها مع الإرهاب والإرهابيين، مشاهد من حياة تتعلق بالمهاجرين ويومياتهم، المساران المتوازيان: المهاجرون/ الإرهاب، يشكلان واقعا يوميا تفيض به وسائل الإعلام ويكثر الحديث حوله من جميع الجهات، أسئلة لا تنتهي والإجابات لا تكتمل، التضخيم مستمر واللامعقول هو سيد الموقف. لكن المسألة ستتسع إلى نوع من الفوبيا المعقدة التي تتداخل فيها بروباغندا سوداء وعنصرية وكراهية في مقابل أيديولوجيا التشدد القادمة من قعر القرون الوسطى، هذا إضافة إلى وجود جيل مشوه العقل والتفكير ما انفكت تلك السلوكيات الإجرامية تجره إلى متاهات لا حصر لها.

في المقابل نجد أن اللامعقول المرتبط بالمهاجرين سوف تتسع مساحته حتى يصبح المهاجر في حد ذاته، ومهما خلصت نيته، مشروعا إرهابيا حتى يثبت العكس.

ألم تعش الجاليات العربية والمسلمة في ذروة صعود داعش والقاعدة فوبيا الاتهام بالإرهاب لمجرد لون البشرة أو الملبس أو الكلام باللغة العربية؟ وهو ما يؤكده هذا الفيلم في مقدّمته "الآن وبعد 11 سبتمبر صرنا نرى في عين كل رجل ذي بشرة سمراء شخصا ما يريد قتلنا".

في فيلم "أشباح الحرب" للمخرج إيريك بريس سوف ينمو اللامعقول بشكل غريب في دائرة انتقامية مريرة تمتد من الحرب العالمية الثانية، حيث يعيش فصولها خمسة جنود أميركان قادمون في مهمة يكون مقرهم فيها قصرا عامرا بالأشباح، لكن الأمر يتعدى ذلك إلى انتقالهم وهم في ذروة اشتعال الحرب العالمية الثانية إلى حرب أفغانستان حيث يواجهون عملية إرهابية.

هاهم الجنود الخمسة أنفسهم في كابول، وسوف يواجهون مسلحي طالبان وهم يتجمعون للهجوم على منزل الطبيب الأفغاني الذي تركنا صورته مع عائلته في القصر المهجور بفرنسا عام 1944، وفي الوقت الذي يشعر فيه الجنود بمرارة التخلي عن الطبيب الذي خدم أميركا وجنودها وزودهم بمعلومات عن أفراد طالبان والقاعدة ها هي أميركا تتخلى عنه، وبذلك يتجسّم اللامعقول من زاوية فوضى الإرهاب الذي لا يبقي ثيمة ولا دلالة إنسانية ولا التزاما أخلاقيا.

يتكامل المشهد عندما تقترب لحظة المواجهة مع مسلحي طالبان وهم يحققون مع الطبيب، لكن هاهو المشهد يعيد نفسه؛ يتم قتل الطبيب حرقا فيما يتم قتل ابنته شنقا وابنه غرقا، وهي القصة الكارثية نفسها التي واجهها الجنود الخمسة في القصر المهجور، فوضى الموت تحت وطأة الإرهاب ما هي إلا شكل آخر من أشكال الإسراف واللامعقول، وهي التي تتجسم وتتضخم في هذا الفيلم من خلال ميتات شنيعة مختلفة.

شعور الجنود الخمسة بالغضب لامتناع الضابط المسؤول عن إصدار أمر إطلاق النار ضد مسلحي طالبان سوف يعيد دائرة اللعنة التي وجدها الجنود موزعة باللغة العربية وبالرموز والطلاسم والتعاويذ وحيث تتردد كلمات اللعنة من الأم التي رأت عائلتها وهي تُقتَل في فرنسا أو المرأة الأخرى التي رأت عائلتها وهي تقتل في كابول، لكن الفارق هو أن أباتشي أميركية كانت قرب المكان ولم تفعل شيئا لإنقاذ العائلة، بينما في الحالة الفرنسية كان القصر معزولا والنازيون وحدهم يفعلون ما يشاؤون.

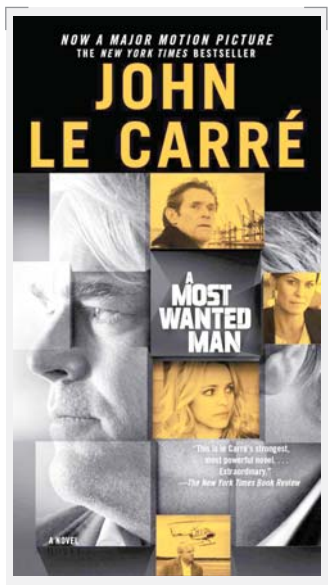

> اللامعقول الزماني والمكاني في دراما الإرهاب والحرب كرس نوعا من النمطية ساد الكثير من الأفلام بهذه الثيمة

ولا حظ هنا ذلك الاشتباك في اللامعقول ما بين الموروث المرتبط بالطلاسم والأحاجي وبالسحر في مقابل قضية الإرهاب وكيف يصبح الموروث الشعبي المجرد تنويعا آخر على تلك القضية الشائكة والمركبة.

اللامعقول الزماني والمكاني في دراما الإرهاب والحرب سوف يتجلى في بحث ثلة من جنود أميركا عما خبأه صدام حسين من سبائك ذهبية تمت سرقتها من الكويت، وذلك في فيلم "الملوك الثلاثة" للمخرج دافيد راسل، وفي موازاة عملية البحث وانبثاق اللامعقول سوف تكون هنالك الصحافية كاثي (قامت بدورها الممثلة جودي غرير) التي أرسلتها شبكة تلفزيونية مرموقة لتغطية انتصارات الولايات المتحدة، يختلي بها الجنرال آرشي (الممثل جورج كلوني) خلوة حميمية، وتتبادل الشتائم مع منافستها الصحافية آدريانا كروز (الممثلة نورا دون)، ثم يدخل آرشي في سجال مع رئيسه الأعلى لكونه يقدم تصريحات للإعلام دون ترخيص وفي مقابل الترفيه الجنسي عن نفسه.

في وسط هذه الدراما المتصاعدة والمشبعة باللامعقول هنالك مشاهد قتل القوات العراقية لامرأة أمام أنظار طفلتها وزوجها وأمام أنظار القوات الأميركية، ومشاهد أخرى تتعلق بالتعذيب والاحتجاز وكلها ملتصقة بالقوات العراقية. المدنيون الذين هم في العراء وبلا حماية يستدرّون رأفة المغامرين الأربعة، والصورة أكثر دراماتيكية ومثالية.

وإذا أمعنا النظر في هذه الجزئية يتبين أنه لم يُعرف للجيش الأميركي إبان الحرب على العراق وتحت وطأة الإرهاب أنه قام بعملية عسكرية انتقل فيها من أقصى جنوب العراق إلى كربلاء، ثم إلى الحدود العراقية الإيرانية بقصد إنقاذ المدنيين في حل إخراجي كان أقرب إلى المزحة الثقيلة البعيدة عن الواقع كليا وهي اللامعقول بكليّته، والأقرب إلى الضحك على العقل الأميركي المستهلك الأول لتلك الدراما.

* ط. ع

ثيمة سينمائية تحتمل الكثير من المبالغات